حلبي يزور باريس

في سنة ١٨٦٧

للدكتور حسين فوزي

هذا الحلبي هو الخواجة فرنسيس ، شخص إلى باريس لدراسة الطب سنة ١٨٦٦ وترك لنا عن رحلته أثراً فذاً : كتاباً طبع في بيروت سنة ١٨٦٧ ، عثرت عليه أخيراً في مكتبة المرحوم والدي . والغالب أن الخواجا فرنسيس كان رجلاً رقيق الحال ، لا لأن كتابه الذي يقع في سبعين صفحة قد طبع على نفقة غيره فحسب ، بل لأن « غيره » هذا نعت نفسه بالعبد الفقير حنا النجار . تصور إذاً ما ذا كان المؤلف وهذا ناشره عبد فقير ! ومع ذلك عنى هذا العبد الفقير بكتاب الخواجا عناية فائقة ، فوشى أركان غلافه بنقوش ملتوية ورسوم ورود وأوراق أشجار ، وطبع فوق عنوان الكتاب طغراء فرنسية يظهر المدقق فيها شكل نسر نابليوني واقف على حسام يتطاير منه الشرر (أو هي صواعق جوبيتر ؟) ويحيط به قلادة « اللجيون دونير » يتدلى منها الصليب الذي خصصه نابليون لرجاله الشجعان . والعبد الفقير حنا النجار كان

الأعظم إلى حيث تتحقق الحياة الديمقراطية الصحيحة

(٣) تعديل التعليم الثانوي على نحو أكثر تحقيقاً للحياة العملية والاجتماعية درءا لأزمة البطالة الراهنة

(٤) تقريب معاهد الثقافة بعضها من بعض على النحو الآنف . ويشمل هذا التقريب الطلبة والمدرسين على السواء

(٥) حسن اختيار المعلمين والارتفاع بمستواهم حتى تصبح مهنتهم جديرة بالاحترام اللائق مغرية للنبهاء والنابغين بالعمل فيها

(٦) تكوين مجلس أعلى للتعليم يضم كبار رجال التربية إلى جانب رجال الاقتصاد والدين والفكر والاجتماع

ولما كانت ناحية محو الأمية وتثبيت قدم الديمقراطية أهم هذه النواحي جميعاً ، فإنا سنعرض لها بإسهاب في العدد القادم إن شاء الله

« يتبع »

محمد حسن ظاظا
مدرس الفلسفة بشبرا الثانوية الأميرية

رجلا عصرياً محباً للتقدم إذ طبع على ظهر الغلاف قاطرة بخارية ذات مدخنة عالية ترسل عموداً كثيفاً من الدخان ، وباخرة ذات مدخنة أعلى تطلق سحباً من الدخان وهي تمخر العباب برفاصات جانبية كالتي لا تزال تراها في بواخر النيل

ورحالتنا يمكن أن يلقب بذي الصناعتين ، فهو مالك لأعنة النظم والنثر ، شاعر حتى في نثره ، وناثر حتى في شعره . وسنرى كيف استطاع أن يعهد إلى النظم بوصف نثري لباريس ، وكيف عهد إلى النثر بوصف شعري لمدينة النور

أسلوبه صور تتوالى . فهو يرى « الحسد والطمع لابسين أجساماً نارية ذريعة المنظر ، وجالسين في ذلك السحاب على مائدة السكر » والسحاب هو الذي رآه الخواجا فرنسيس « على الأفق نارياً كثيفاً ذا لون كأنه من مصبغة الموت ، تقشعر منه الأبدان وتزهق الأرواح ، ومصنوع من زفرات البشر ، وكان الخمر دماء ، والأقداح جماجم ، وهما يصرخان الخ » ويرى أقواماً « يرضعون الذل من أثداء أمهاتهم وعلى ظهورهم أحمال ثقيلة تحنيهم إلى الأرض ، وفي أيديهم حقاق فولاذية مطبوقة على أفكارهم وحريتهم » كما يرى « راية المصائب والأوصاب تخفق على كل هامة ، ورياح الآلام والأوجاع تعصف بكل روح ... » وهو إذا ركب السفن « امتطى ظعن البخار ، وأخذ يطوي بيد البحار »

والخواجا فرنسيس كما ترى فيلسوف متشائم ، فهو يبدأ كتابه بالقول إنه لما « أدرك رشده ، وبلغ أشده ، دخل العالم ليتجسسه ويرى كيف يجب اعتباره منه . فعند ما تبصره كافياً ، وجده سوقاً عظيماً لا حد له ، وجميع الخلائق أقامت فيه حوانيتها وكلها تنادي على بضائعها ، وكأنها لا يسوغ لأحد مشترى شيء من هذا السوق ما لم يضع على عينيه نظارة تختلف لوناً وقوة ... فكل يرى هذا السوق على كيفية نظارته وماهية نظره . فالبعض لا يشاهدون فيه معتبراً سوى معدني الذهب والفضة ، فيندفعون جماحاً إلى نوالهما على أي أسلوب كان »

ولعلك حذرت أن رحالتنا الخواجا فرنسيس ليس من هؤلاء وليس من البعض الذين « لا يفهمون العالم سوى مقر اللذات والطرب ، لأنهم لا يدركون بنظاراتهم سواها ، فلا يعتبرون إلا أها . فيعيشون ناشرين شراع الليل ، وطاوين بساط النهار في الولوع والكر والرقص والخلاعة . هذا إذا لم يتهرهم حارس هذا السوق ، أعني به ذلك العفريت الجهنمي المدعو الزمان »

أما هو « المسكين ، فقد كانت نظارته لسوء حظه مصنوعة من أشنع الألوان ، وأبشع الأشكال » لأنه حين وضعها على عينيه « وجد عالماً ذريعاً ترتعد منه الفرائص ، وتميد عمد القلوب وينفى عنه كل ذوق سليم » . ولا داعى إلى الإسترسال فى نقل الصورة المدلهمة التى يرسمها لنا الخواجا فرنسيس ، فهو متشائم فحسب ، وقد رأى هـذه السوق « المدعو عالماً ، نخلا فى نفسه ليرى أى بضاعة يبتاعها » فلم يجد « أشرف من انتقاد هـذه الحوادث ، والبحث عن حركات هذا العالم » فهو يريد أن يكون كاتباً أخلاقياً « moraliste » ، وكتابه سوف يظهرنا على مبلغ نجاحه فى هذا السبيل

إلا أنه ، وقد بلغ العشرين ، شرع « يمتحن نفسه ليرى ماذا جنى من الثمرات . ولـكنه لم يجد فى مخيلته سوى كمية وافرة من ألوف مسائل العلم العربى — نحن فى سـنة ١٨٥٦ — ولم يعثر فى خزانته على غير كتب مطولات ومختصرات فى النحو والصرف وما يلحقها» . وهو إذ تأمل «الفائدة لم يجدها سوى نظم الشعر» فهو يقول فى تواضع مؤثر «فها أنا شاعر إذا أراد شعراء العصر» ولـكنى لا أحسب شعراء عصره — وأقل منهم شعراء عصرنا — يريدون تضخم الصناعة إلى هـذا الحد ! ثم هو على كل حال لم يهمل أن يلاحظ « جملة أضرار تقابل هـذه الفائدة . وهى أولاً كساد سوق الشعر ، ومقت العامة له» — أما نحن الخاصة فسوف نذوب صبابة فى شعره بعد لحظة — لذلك أوحت إليه « كراهته تلك الفائدة المفتداة بأنفس سنى حيوته أن يتعكف إلى طلب العلوم العالية واللغات » . ثم اتفق له أحد مهرة أطباء الانكليز « فألقى ثقله على مسايرته ، وبدأ يدرس عليه العلوم الطبية وهو فى سن الخمسة والعشرين ، حتى هضم أربع سنين كوامل على هذه الدراسة ، وصار طبيباً » وعلى رأى المعلم وحده مع الأسف ، أما فى رأى ما « تقول المدارس فقد كان جهولا »

وشرع « يباشر الأمراض متلاعباً بصناعة إبيوقراط » . ثم أوعز إليه ضميره أن يرحل إلى « باريس محط عرش الافرنسيس » . وكان لهذا الحادث الهام الفضل فى الكتاب الفذ الذى تلخصه لقراء « الرسالة » بعد سبعين سنة من نشره

ففى اليوم « الواقع فى ٧ إيلول ١٨٦٦ ، وهو داخل فى دايرة الثلثين » خرج من « أبواب الشهباء صحبة الكروان ، ممتطياً ظهر كديش أخى قزل » (ألم أقل إن الخواجا فرنسيس شاعر فى نثره ؟) فبلغ « الاسكندرونة مينا حلب » . وترك لنا وصفاً للطريق يوقف الشعر هلما . فمن « أوعار مطقاة فى الطريق كأنها أمواج البحر الجامد » إلى « جبال صاماء القمم » إلى « هضاب ممحلة منفردة كالغصوص فى درب أبناء السبيل» ومن « عواصف وقواصف تهب من مرابضها الجهنمية على السرى » إلى « أنهار راكدة على فراش الأوصال تعارض سير القوافل» . وفى إحدى مراحل هذا الطريق « ينجلى » الخواجا فرنسيس فنتعرف إليه لأول مرة ناظماً ، ولا أقول شاعراً فان شاعريته قد بزغت فى نثره كما رأينا . وقد أسالت « جمرة الفراق جمودة قريحته فهرع إلى القلم ونقش أبياتاً كأنها منشودة من أحد أعراب البادية ... إلا قليلا » . وقد حكم إذ ذاك أن للشعر « علاقة ثابتة مع الموضوعات التى يراها الشاعر » . وسأوفر عليك عناء قراءة هذا الشعر البدوى الذى كتب فى بادية الشام ما بين حلب والاسكندرونة . ويكفى أن تعلم بما فيه من حداء السرى والخيام والحمى والغيس . وقد لا تمانع فى أن تسمع بيتين من جزل شعر الخواجا فرنسيس :

فهل ذكرت تلك المنيمة فى الخبا ... شريداً طحاه البين وهو غلامها
وهل علمت أسماء — وهى عليمة — ... صبابة نفس قد تسامى مرامها

نسيم الصبا هل ... إلى آخر البيت

وهو رجل غدا الآن واسع الخبرة بالدنيا إلى حد أن يختتم قصيده قائلاً :

ومن خبر الدنيا وأدرك شرها ... تساوى لديه حربها وسلامها

وقد تأثر عند مشاهدته مدينة الاسكندرونة « حينما أذكر المشكل الدولى حول هذا المرفأ ولوائه ! » وكان تأثره « صاعقة لأنه رآها هاوية فى أعمق هاوية من القهقرة » أهذا « مينا حلب مدخل تجارة الزوراء وتركستان ، ومخرج أنسجة ومحصولات عربستان ، صابرة مرسحاً لملاعب الخراب .. حتى تكاد أن لا تعتبر سوى كمبصقة للبحر ، أو مداس للدهر ؟ »

وامتطى «ظهر البخار ، وأخذ يطوى بيد البحار ، حتى عانق باع اللاذقية » ولـكنه لم ينزل إليها « وخفقت به أجنحة البخار إلى مدينة طرابلس ، فوجدها ظريفة وعليها أبهة العمار ، وكأنها تهم إلى التقدم فتدفعها نحوس الأقدار »

ثم زار بيروت ورأى أن لا بدع فى أن « جلست هـذه

المدينة على المرتبة الأولى ما بين مدن سوريا . وأصبحت مبزغاً لكل نور » وبعد نهاية « أجل المرسى عاود إلى المركب وطار به إلى يافا ، فنزل إليها بعد تردد وخوف من مطاردة الأمواج ، الدايمة الهياج » ولكنه ما عتم أن عاد آسفاً على الشجاعة التي بذلها في منازلة أحط صعاليك المدن كما يقول

بعد ذلك أخذت « تخفق له أجنحة نسر البحر إلى جانب الاسكندرية » فبلغها بعد ثمانية أيام من مغادرته حلب ورأى فيها مدينة « قائمة على ساق التجدد » ، ودعاها تاج المشرق وعنوان المغرب . ووجد فيها وقود « النور الايدروجيني خاصة في الساحة المدعوة عندهم بالمنشية »

ثم « أوحت له شياطين الليل أن يرحل إلى القاهرة . فركب أجنحة عفريت البر ، فطار به كالباشق — يقيناً إن الرجل شاعر غير نادم ! — حتى أوقعه هـذا العفريت بعد خمس ساعات على مدينة الأهرام ، أعني الأثر الوحيد الذي أبقته القدمية تميمة على رأس هذه المدينة . وجعل يتفرج على مشهورات القاهرة مدة ستة أيام ، فلم يعثر على ما يستحق الذكر أو يروق الخاطر — حتى ولا النور الايدروجيني ؟ — سوى خزانة التحف المصرية وجامع القلعة الذي بناه محمد علي باشا من الحجر الكهربائي — لم أعرف قبلا أن هذه ترجمة albâtre ! — مع السرايا المحاذية له . كما بنى سرايا شبرى ذات الحوض المرمري العظيم الذي أنشأه لكي يتنزه فيه على قارب تجدفه جوار حسان (كذا !) أما الأزبكية الشهيرة فلا عادت تنطوي سوى على بعض أشجار بلح مغروسة بين أمواج الرمال »

أما أسواق القاهرة « فلا يوجد أقبح منهـا لشدة ضيقها وأوحالها ، حتى أن البعض لشدة ضناكته يكاد أن يرفض مسير اثنين معاً ، ولا يقبل الضوء ، ولا يوجد شارع يعتبر بالنسبة إلى البقية سوى الشارع الملقب بالموزكي أو طريق الإفرنج حيثما اختار التجار الحلبيون إقامة حوانيتهم »

ووجد مع ذلك في هذا البلد « كثيراً من الآثارات والبقايا القديمة ... وعدداً جزيلاً من الجوامع وأخصها جامع الأزهر الذي كان زاهراً بعلوم العرب وفنونهم ، وقد تقوض حسب اقتضاء روح العصر بالمدرسة العالية التي جددها حضرة اسماعيل باشا قيل مصر » — لو رأى الخواجا فرنسيس هذا الجامع في أيامنا !

وعاد رحالتنا إلى الأسكندرية « يستنظر المركب الذي سيصحبه إلى أوروبا . وورد الصاحب المستنظر فقلع معه الخواجا فرنسيس في ١٤ تشرين الأول . وفي صباح العشرين منه انقض به باشق البحار على مدينة مرسيليا ، ووجد ذاته حينئذ مرتاحاً في حضن الغرب ، متخطراً تحت سماء أوروبا » ؛ وبعد إقامته ثمانية أيام في هذه المدينة « المصاغة من عسجد الظرافة ، والمطرزة بلؤلؤ الجمال ، ركب بخار البر في طريق الحديد وأخذ جهة ليون »

وهنا يصف الرحالة الفذ شعوره في بخار البر وطريق الحديد ، وحيال المناظر التي مرّ بها معترفاً « بعجزه عن الشرح ، وموجز القول بأن تلك المساحات التي مرّ عليها ، فلوات وجبالاً وهضاباً ، كانت بستاناً واحداً ومدينة واحدة ؛ وما كان يشاهد لون التراب الطبيعي سوى بين اسطوانات طريق الحديد ، حيثما تكر العجلات »

ولم يزل الخواجا فرنسيس « مضطجعاً في المركبة الطايرة على أجنحة البخار ، مطلاً من كواتها البلورية على نفايس هذه الطبيعة إلى أن حط به طاير النار على مدينة ليون نحو نصف الليل ، حيثما كانت سابحة في أنوارها العرمرمية »

وهنا تعاود رحالتنا جنة الشعر ، فيهرع إلى القلم ليحبس هذه الخيالات المنثورة في بيوت منظومة ، ولكنه يبدو في هذه المرة شاعراً حضرياً عصرياً ، ألم يحكم بأن للشعر « علاقة ثابتة مع الموضوعات التي يراها الشاعر ؟ »

إلى جنة الفردوس هل أنا سايرٌ ... ترى أم إلى دنياء أخرى مسافر
وهل أنا مع نسر السما طاير إلى ... سما أم بخار الماء بي هو طاير
وعهدي أن الماء يضعف إن غدا ... بخاراً فكيف الآن ذا الضد ساير

ويواصل نظمه ثلاثين بيتاً يتغزل في « عفريت البر وباشق البخار » ويقارن بين راحة السفر على أجنحته وتعب الأسفار على ظهور الإبل :

ولم يبق من ظعن سوى العجلات في
حديد تكر الدهر وهي سوابر
أبت غير نيران اللظى علفاً لها
وهن على خير الهشيم دوابر

ولما لمع وجه الصباح ، نهض من فراش النعام وطفق يطوف ليون ليتفرج على ما تشتمل عليه من المحاسن واللطايف ؛ وهو

يذكرنا إذ يتغنى بجمالها وكمالها وما « اجتمع لها من المقومات المدنية والأدوات التمدنية بأن أول من شرع فى رفع شأنها أحد أولاد قلويس (Clovis) ملك الفوليين ذى الشهرة العظيمة فى غاليا (la Gaule) بادخاله إلى هذه المملكة جملة نظامات وتجديدات لمع بها زمانه ، وأهمها إدخاله الديانة المسيحية فى الفوليين بعد أن أدخلته فيها امرأته بقصها عليه أخبار قسطنطين الكبير ، وباقناعها له أنه إذا سلك مسلك ذاك الملك المنتصر بالتنصر ، إنما يقهر نظيره كل أعدائه »

وركب الخواجا فرنسيس نسر البحار بعد تمضية ثلاثة أيام فى ليون ، فطار به إلى باريس حيث وصل قرب انفلاق الصباح

ولنا أن نتوقع انفجار — أو ربما قال انفطار ؟ — نفس رحالتنا فى قلب باريس ، وأن نترقب هبوط وحى الشعر عليه . ويظهر أن خواجتنا رجل يحسن « الإخراج » فهو تاركنا نشتاق إلى شعره بعد أن حببنا إليه بعض الخطرات ، ليمضى فى وصف نثرى لباريس حتى قبيل آخر الكتاب ، ثم هو مطبق علينا بقصيدة مخمسة عددت شطراتها فكانت خمسمائة شطرة والعياذ بالله . وبذلك يكون الخواجا فرنسيس قد أفرغ فينا شعره مرة واحدة

وكان المتوقع أن يترك رحالتنا للشعر مهمة التعبير عن إحساساته في باريس ، وأن يودعه تفكيره العالى ، تاركاً للنثر وصف المتاحف والميادين . ولكن رجلنا شعره منثور ونثره منظوم كما سبق لنا القول ، فبينا هو يتغنى نثراً بباريس « مركز مجد العالم ، ومصب أنهار العجايب ، وموقع أنوار التمدن ... وها قد أخذت عيناه ترى ما كان يراه ذاك الذى خطفته أرواح الآلهة إلى السماء الثالثة » إذا به يصطحبنا بشعره كأنه « بيديكر » فينصح بأن نترك الدرس لنتمشى فى شوارع باريس :

ياصاحبي حتى م ترعى الوسوسة ... ها كافة الدراس عافوا المدرسة
وكل نفس قد غدت مستأنسة ... بهدنة فى الدرس تطفى قبسه
وتضرم الأشواق ضمن الصدر
هيا بنا نسع إلى البولفار ... إلى مكان الشهب والأقمار
حيث نرى بدايع المعمار ... مقرونة بيدع الأفكار
حيث الغنى حيث افتقار الفقر
كفى قصر بنا إلى ڤندوم ... حتى نرى تمثال ذى الهجوم[1]

(١) يقصد نابليون طبعاً !

٢٧ ـ ١٠

يجلى على عموده المنظوم ... من سلب الحرب مع الخصوم[1]
بطرس نابليون عالى الذكر[2]
ها قد نظرنا أثر الشقاق[3] ... فلنتطلق لساحة الوفاق[4]
ذات رنين الصيت فى الآفاق ... ذى ساحة تسطو على الأحداق
وتسكر العقل بغير خمر
ولننعطف نحو مقام التوللرى ... أعنى بلاط العاهل المظفر[5]
هناك بستان عجيب المنظر ... فكله شوارع من شجر
وفسحات زخرفت بالزهر

كلا ! لست أنوى أن أسرد عليك كل هذه الخريدة العظيمة ، والدرة اليتيمة . إنما أنا أقتطف من شطراتها الخمسمائة هنا وهناك لأجمع لك باقة عاطرة من شعر الخواجا فرنسيس . ثم أى بأس فى هذه النزهة الباريسية الفريدة ؟ الناس يرتادون باريس فى « الأتوكار » ، والمعلم فرنسيس يصطحبك بقصيدته الحماسية إلى كثير من أماكنها الهامة . ها هو ذا يناديك من بوقه الشعرى :

فلنطلق المسعى لدار اللوفر
ها قد بلغنا الآن دار التحف ... حتى نرى عالم دنيا السلف
نرى حيوة الناس فى العهد الخفى ... وهتك ستر الزمن المنصرف
كل له داب بهتك السر
جماعة الأشور والمالق ... يبدون من ذاك الظلام الغاسق
يجلون فى الثياب والقراطق ... طبق لباس الناس فى المشارق
فذاك زى الشرق منذ الفطر
كذا نرى جميع أعمال اليد ... منهم وكل الأدوات الشرد
وكل معبود لهم ومعبد ... لكنما المضحك فى ذا الصدد
إلههم ثور برأس حبر[6]
وهكذا سكان مصر السالفة ... مع آل أشور لهم مخالفة
كانوا على الأرض أجل طايفة ... أجسادهم بخطات واقفة
ولا يرى هذا سوى فى مصر

(له بقية) حسين فوزى

(١) عمود نابليون صب من المدافع التى غنمتها جيوش نابليون
(٢) أنظر ورقة ميلاد نابليون لتعرف إذا كان بطرس من أسمائه
(٣) يقصد الحرب
(٤) أى ميدان الكونكورد
(٥) نابليون الثالث فى قصر التويلرى وقد أحرق القصر بعد سقوط الامبراطورية الثانية
(٦) أترى التكيت البارع المتع ؟ presque voltairien